التوازن البيئي رؤية إسلامية

الأستاذ/ محمد يونس(*)

تمهيد:

إذا كانت تعريفات علماء الغرب للبيئة تشير إلى أنها الوسط أو المجال الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها، فإن المفهوم الإسلامي للبيئة أكثر عمقا من ذلك حيث يربط البيئة بمجمل المنظومة الإيمانية للمسلم، فالمسلم يؤمن بإله واحد خالق الكون ومنزل القرآن الكريم.

ويحفل القرآن والسنة النبوية بالعديد من النصوص التي توضح بجلاء علاقة الإنسان بالبيئة التي يعيش فيه.

هذه النصوص توضح أن الله تعالي قد خلق الكون بما فيه وما فيه من كائنات ومكونات وسخرها الله تعالي لكي يعمر الأرض ويعبد الله، وانزل تعالي للإنسان الرسل هادية ومبشرة وحاملة لمنهج الله تعالي في الحياة، وجاء الإسلام ليختم رسالات السماء إلى الأرض فتضمن المنهج والميزان الذي يحكم العلاقة فيما بين الناس من ناحية، وبين الإنسان البيئة من ناحية أخري.

وهذه العلاقة بين الإنسان والبيئة تقوم في المنظور الإسلامي على أساسين:

الأول: التسخير: أي تسخير الله تعالي لمكونات البيئة لكي تساعد الإنسان على أداء رسالته في تعمير الأرض فيقول تعالي: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

(*) الصحفى بالأهرام

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[1] ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2] ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[3].

والثاني: الوسطية وهذه الوسطية ترتبط بالتسخير:

لكي يستفيد الإنسان من تسخير مكونات البيئة بأسلوب معتدل وبمنهج الوسطية التي تميز به الإسلام عن سائر الأديان الأخري، وينبع هذا الاعتدال من حقيقة موقع الإنسان في الكون، فالإنسان في المنظور الإسلامي: "سيد في الكون" وليس "سيد الكون" كما يري الفكر الغربي، ومن ثم فإن حركة الإنسان وسلوكه تجاه مكونات البيئة تحددها جملة التعاليم والمبادئ والقيم التي جاء بها القرآن الكريم ووردت في السنة النبوية، كما ترتبط بالمعالم الأساسية للمنهج الإسلامي في الحياة والكون والسمة الأساسية لهذا المنهج هي الوسطية فهذه السمة تميز المنهج الإسلامي عن مناهج المذاهب والفلسفات والشرائع الأخرى، وقد انطبعت الحضارة الإسلامية بهذه السمة في كل القيم والمثل

(١) سورة إبراهيم: الآيات ٣٢-٣٣

(٢) سورة النحل: الآية ١٤.

(٣) سورة لقمان: الآية ٢٠.

والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات وهي تمثل الفطرة الإنسانية في بساطتها وبداهتها وعمقها وصدق تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها حيث يقول تعالي: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

وهذه الوسطية الجامعة تميز المنهج الإسلامي في معالجته لمختلف دوائر العلاقات التي تسود دنيا الناس محل العلاقات فيها بين الفكر والمادة، والجبر والاختيار، والدين وبهذه الوسطية لم يقع الفكر الإسلامي في الثنائية التي شهدتها ولا تزال تشهدها الحضارة الغربية بين الروح والجسد، والدنيا والآخرة، والذات والموضوع، والعقل والنقل، والدين والعلم[2] وهذه التي تحكم أو ينبغي أن تحكم علاقة الإنسان بالبيئة.

ومن ثم فإن مفهوم البيئة في المنظور الإسلامي يعني أكثر من مجرد سرد لمكونات البيئة أو النظام البيئي، فهو يربط هذه المكونات بالنفس البشرية، لأن شريعة الإسلام لا تقف بالإنسان عند حدود الماديات وشكلها وإنما تجعلها وسيلة لبلوغ الهدف الأسمى وهو تزكية النفس وتطهيرها وإعادة صياغتها على نحو خال من العقد والانفصامات، وهو ما تنفرد به الحنيفية السمحاء عما سواها من شرائع البشر وقوانينهم الوضعية التي إن سيطرت

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٣

(٢) د. محمد عمارة: "معالم المنهج الإسلامي" القاهرة: دار الشروق، ١٩٩١م، ص٧٧–٨٠.

حيناً على الجوارح، فلا سلطان لها البته على الجوانح[1]، يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[2].

وتشكل البيئة في الرؤية الإسلامية كياناً حياً، فليس الأرض مجرد جرم يطؤه الناس بأقدامهم، ويفعلون على ظهرها ما يشاءون وليس الجبال مجرد كيانات هامدة وإنما هي كيانات حية لها حس وإنفعال خاص[3] حيث يقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[4] ويقول: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[5] ويقول: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[6].

ويقول المصطفى ﷺ: «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا حجر ولا مدر ولا شئ إلا شهد له يوم القيامة»[7]

---

(١) عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني" القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، د. ت، ص١٠٣.

(٢) سورة الشمس: ٩–١٠.

(٣) د. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدي، مرجع سابق، ص١٠٤.

(٤) سورة الاسراء: الآية ٤٤

(٥) سورة الحج: الآية ٥

(٦) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

(٧) رواه ابن ماجه ومالك في الموطأ.

ويعكس التصور الإسلامي نظرة عميقة لمفهوم البيئة، فقد طالب الإسلام الإنسان بأن يتعامل مع البيئة من منطلق أنه ملكية عامة يجب المحافظة عليه حتى يستمر الوجود، حيث يقول تعالي: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(١).

كما أن نظرة الإسلام للبيئة لم تقتصر على البعد المكاني لها وإنما شملت أيضا البعد الزماني: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾(٢).

وقد طالب الإسلام المسلم أن يستثمر عمره باعتباره بعدا زمنيا هاما في تعامله مع الأنظمة البيئية من منطلق انها نعمة كبري للإنسان ودعاه إلى النظر في مكونات البيئة من منطلق أنها نعمة كبري للإنسان والتأمل في مخلوقات الله(٣) وجعل ذلك دليل على الإيمان ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

ويحفل القرآن الكريم بالكثير من الآيات التي تؤكد على أن الله هو وحده خالق البيئة ومنظمها، وهو الذي وضع النواميس التي تكفل حفظها. ومنها قوله تعالي ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨٥

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢٠

(٣) د. محمد عبد القادر الفقي: "البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث"، القاهرة: ابن سينا، ب.ت،ص ١١٩.

(٤) سورة يونس: الآية ١٠١

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقوله ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[2].

وقوله: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[3].

فكل ما خلقه الله قد خلقه بمقادير محددة وصفات معينة بحيث تكفل لها القدرة على توفير سبل الحياة الملائمة للإنسان وغيره من الكائنات الحية الأخري التي تشاركه الحياة على الأرض، والقرآن الكريم يلخص هذه الحكمة بقوله تعالي: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[4].

وهو تعالي يعلم أن هذا القدر هو الذي يكفل لأي مكون أو عنصر من عناصر البيئة أن يؤدي دوره المحدد والمرسوم له في صنع الحياة في توافقيه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢

(٢) سورة ق: الآيات ٦-١١

(٣) سورة الحجر: الآيات ١٩-٢٢.

(٤) سورة القمر: الآية ٤٩

أنسجامية غاية في الدقة فخضع كل ما في الكون لدورة حيوية رسمها الخالق العظيم تتسم بالدقة والاتزان، وتجري الحياة في هذا الكون بصفة مستمرة خلال سلسلة من عمليات التولد والموت والتحول، فالحيوانات حين تموت، تتحل أجسادها إلى التراب، وتقوم النباتات باستخلاص المواد الغذائية من التراب لتحولها إلى أوراق وثمار وبذور يعتمد عليها الإنسان والطير والحيوان في غذائه، وتستمر عملية الموت والتحول والحياة وفقاً لما قدره الخالق عز وجل[1].

وفي الورقات التالية نحاول أن نتعرف على التوازن البيئي في رقابة إسلامية تنطلق من آيات القرآن الكريم وأحاديث سيد المرسلين وتربط ذلك بالواقع البيئي المعاصر.

(١) د. محمد عبد القادر الفقي، مرجع سابق، ص٢٠-٢١.

التوازن البيئي.. رؤية إسلامية

شاءت إرادة الله تعالي أن تجعل الأرض مستقراً للإنسان الذي اتخذه الخالق خليفة له وقد خلق الله تعالي البيئة الطبيعية على صورة متوازنة تجعل الحياة تسير وفق قوانين ونواميس إلهية تكفل استمرارها من خلال مجموعة من التوافقات والتنظيمات الرائعة والتي يطلق عليها العلماء التوازن البيئي الطبيعي، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا التوازن في العديد من الآيات ومنها قوله تعالي: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾[1].

ولكن تدخل الإنسان بجموحه وطموحه الزائد قد أدي إلى الإخلال بهذا التوازن ونجم عن ذلك مشكلات بيئة عديدة.

ونعرض فيما يلي: لفلسفة التوازن البيئي من المنظور الإسلامي والمشكلات التي نتجت عن التدخل الإنساني غير الراشد في هذا التوازن.

لاشك أن البيئة وحدها متوازنة ومتكاملة إذ تشترك في هذا التكامل جميع عناصرها الطبيعية والحيوية وهذا التكامل يقوم على ما بين هذه العناصر من ترابط وتلازم بلغ حد التعقيد فليست حياة الأحياء في بيئاتها مجرد وجود كائنات حية يعيش بعضها مجاوراً لبعض في بيئة واحدة وإنما هي مزيج من العلاقات التي تربط الكائنات الحية بعضها ببعض من جهة، كما تربط هذه الكائنات بعوامل البيئة من جهة أخري.

---

(١) سورة الحجر: الآية ١٩.

ويؤدي ذلك إلى سير عجلة الحياة من خلال ما هو معروف بالسلاسل البيولوجية الشهيرة، مثل سلاسل كل من الكربون والنتروجين والأكسجين والأيدروجين، فالنباتات الخضراء تستخدم ثاني أكسيد الكربون في تغذيتها لإنتاج العديد من المركبات التي يستخدمها الإنسان والحيوان في سد متطلباته الحياتية وفي نفس الوقت تقوم تلك النباتات بإنتاج الأوكسجين فهي بمثابة رئات كونية عملاقة كما أنها تقوم بتحويل النيتروجين غير العضوي إلى بروتينات تستخدم كمواد غذائية أساسية، أما الحيوانات فتعتمد بدورها على الطعام الذي تنتجه النباتات بصورة أساسية، فضلاً عما تقوم به من دور مهم في تجديد المواد غير العضوية مثل ثاني أكسيد الكربون والنترات والفوسفات اللازمة لدعم الحياة الذاتية وإعالتها(١).

كما أن الملايين من الكائنات الحية الدقيقة التي تقطن التربة أو المياه العذبة وهذا القدر الهائل من التفاعلات الحيوية يعمل في تآزر على دفع عجلة الحياة في المحيط الحيوي بصورة متزنة ودقيقة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٢) ويقول ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾(٣). ويقول أيضا: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾(٤).

والحقيقة أن الإنسان هو المسئول مباشرة عن الإخلال بالتوازن البيئي خاصة في العصر الحديث حيث استخدام منجزات الثورة العلمية في إحداث

---

(١) د. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدى: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيمائي "القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤، ص٥٠-٥١.

(٢) سورة القمر: الآية ٤٩

(٣) سورة الطلاق: الآية ٣

(٤) سورة الحجر : الآية ١٩.

هذا الإخلال بالتوازن البيئي الرباني، فقد جاء هذا الإخلال عبر أنماط الإنتاج وأيضا من خلال أنماط الاستهلاك لدي الإنسان المعاصر.

فيما يتعلق بأنماط الإنتاج في العصر الحديث، نجد أن الدولة الغنية أو الصناعية تسعي بنهم إلى استهلاك كميات متزايدة من المواد الخام ومواد الطاقة التي تنتج عالميا فالوقود الحفري مثل الفحم الحجري، وكذلك البترول والغاز الطبيعي، كلها مصادر للطاقة غير متجددة والعجيب حجم الوقود المستخرج من هذه المصادر قد تضاعف إلى نحو مرة في هذا القرن مقارنا بالقرن الماضي، وأن الدول الصناعية تستخدم معظم الإنتاج العالمي من المعادن والوقود الحفري (ثلثي هذه المواد) بالرغم من أن تعدادها السكاني لا يتجاوز ثلث سكان العالم، ومن هذا الإحصاء الوجيز ندرك فداحة هذه المشكلة ونتصور آثارها الضارة على البيئة بشتي صورها، وما تدل عليه من جشع وإسراف.

أما الدول الفقيرة أو النامية فإنها تعمل على إجهاد البيئة بطرق مختلفة حيث يؤدي اعتمادها على الزراعة في التصدير، فضلاً عن سد حاجاتها الاستهلاكية- إلى استنزاف التربة وإجهاد البيئة عن طريق القطع الجائر للغابات، وإنهاك ماشية المرعي، والصيد الجائر للحيوانات البرية والبحرية والتلوث الذي أدي إلى القضاء على كثير من أنماط الحياة البرية في العديد من دول العالم- ففي أوربا وحدها أصاب تلوث البيئة مليون هكتار بالضرر تمثل ٣٥٪ من إجمالي مناطق الغابات بهذه القارة[١].

(١) سينياشي: "حماية الحياة على الأرض" ترجمة أنور عبد الواحد، القاهرة، الدار الدولية للنشر، ص٣.

أما من حيث أنماط الاستهلاك، فنجد تزايد رهيب في أنماط الاستهلاك وتزداد تلك الحقيقة وضوحاً في أذهاننا إذا علمنا أن العالم كان لا ينتج إلا نحو ٢٠٪ من السلع التي ينتجها اليوم قبل عام ١٩٥٠م، كما كان العالم لا يستهلك إلا نحو ٣٥٪ من المعادن التي يستغلها اليوم، وفي كل هذه دلالات واضحة على أن البيئة وعناصرها المختلفة، براً وبحراً وجواً، وقد ساهم في توزيع هذه الهوة ما كان يعانيه المجتمع البشري من الاحلاف والتكتلات والحروب الساخنة والباردة التي سادت بقاع العالم بأسره(١).

وتتعدد ملامح الإخلال بالتوازن البيئي بسبب التدخل غير الراشد للإنسان، ففي مجال الزراعة حدث تدمير خطير، ويكفي أن نذكر أنه خلال الفترة ما بين ١٩٧١م حيث انعقدت قمة استوكهولم للبيئة بالسويد وحتى عام ١٩٩٢ حيث انعقدت قمة "ريو دي جنيرو" في البرازيل أعلنت الأمم المتحدة أنه تم قطع ٤٩٤ مليون فدان من الأشجار، وأن التصحر قد نجح في التهام ٢٩٧ مليون فدان أخري، وأن عشرات الألوف من الحيوانات والنباتات قد انقرضت، ولم يعد لها وجود في دنيا الناس، كما ارتفعت نسبة ثاني أكسيد الكربون بمقدار ٢٥٪ عما كانت عليه عام ١٩٧٢م أي أن معدل قطع الغابات قد بلغ ٢٥ مليون فدان سنويا كما بلغ معدل التصحر ١٥ مليون فدان سنويا. ومن الأمثلة الصارخة أيضاً مجزرة الغابات الاستوائية في "الامازون بالبرازيل" وغابات "لاكنون" المكسيكية المطيرة.

أما في المجال الصناعي، فقد أدت الثورة الصناعية إلى إنتاج العديد من

---

(١) د. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدى، مرجع سابق، ص٥٢–٥٣.

المركبات والمواد الكيماوية، التي تستخدم في شتي الأغراض، ومن بينها تلك المواد الطبيعية العلاجية والوقائية، وقد أغرت هذه المواد الإنسان فاستخدمها في مكافحة الآفات التي تظهر في بيئته، وتناصبه العداء، ولقد كانت مادة كبريتات النحاس أولي هذه المواد استخداماً في مكافحة آفات الكروم، كما احتل مركب د.د.ت. شهرة واسعة في هذا المجال، كما استخدمت مشتقات كل من الزرنيخ والفلور في المكافحة، وليت الأمر اقتصر على هذا ولكن الأكثر من ذلك هو أن الدول الصناعية الكبري قد حشدت في ترسانتها الحربية كميات هائلة من المواد الضارة بصحة الإنسان والملوثة للبيئة، كما أصبحت الأقمار الصناعية والمكوكات الفضائية تجوب الغلاف الجوي ليل نهار فمزقت هذا الغلاف وصاحب ذلك نفايات وعوادم تكتظ بها البيئة فضلاً عن عوادم السيارات ومخلفات المصانع(١).

ويتعرض أكثر من بليون شخص في العالم للتلوث غير المقبول بثاني أكسيد الكبريت بسبب الصناعات الثقيلة وارتفاع عدد السيارات خارج البلاد الصناعية من ٢٢ مليون سيارة عام ١٩٧٠ إلى ١٠٩ ملايين سيارة عام ١٩٩١م(٢).

وهذا أثر الإخلال بتوازن البيئة قد أدي إلى العديد من المشكلات البيئية، ومن أبرزها:

---

(١) المرجع السابق، ص٥٣-٥٤.

(2) **Robert W.Halhn and ard A.May: "The Behavior of the Allowance Market; Theary and Evidenc" Electricity Journal, March 1994.P8.**

أولاً: تدهور إنتاجية الأراضي الزراعية وتصحر مساحات شاسعة من أراضي المعمورة:

فتشير الإحصاءات إلى أن ٢١ مليونا هكتار من الأراضي الزراعية قد أصبحت غير صالحة للزراعة وتقدر الخسائر بسبب التصحر بنحو ٢٦ ألف مليون دولار سنوياً.

ويقدر معدل زحف الصحراء في السودان على سبيل المثال بنحو ١٠ كيلو مترات سنويا كما يقدر معدل انخفاض الغابات في المغرب بنحو ٣٠ ألف هكتار في الفترة من ١٩٤٠م إلى ١٩٨١م. وقد بلغ معدل تدمير الغابات في العالم فدانا واحداً في كل ثانية، كما بلغ عدد السكان المتضررين من التصحر ١٣٥ مليون نسمة طبق إحصاء عام ١٩٨٤م.

ثانياً: ارتفاع درجة حرارة الأرض:

لقد أدي الاستهلاك الهائل والمذهل لملايين الأطنان من الوقود يومياً في المجتمعات الصناعية إلى تصاعد ملايين الأطنان من غازات ثاني أكسيد الكربون والميثان وغيرها من الملوثات، مما يؤدي إلى رفع درجة حرارة الأرض بمرور الوقت، وقد حذر العالم الأمريكي (جيمس هانسن) مدير معهد (جودارد) لدراسة الفضاء من خطر ارتفاع درجة حرارة الأرض.

ولهذا الارتفاع في درجات الحرارة تأثيرات خطيرة على مستوي سطح مياه البحر، حيث يترتب عليه إزالة الجليد في المناطق القطبية ويترتب عليه ارتفاع مستوي سطح مياه البحر مما يهدد بغرق ١٢٠ مدينة ساحلية.

ثالثاً: هطول الأمطار الحمضية التي تنزل أثاراً مدمرة على النبات والأراضي الزراعية

رابعاً: تأكل طبقة الأوزون وما يترتب عليه من مشاكل في المناخ وتأثير ضار لأشعة الشمس على الإنسان[1].

وتعود هذه المشاكل البيئية إلى عوامل أشار إليها القرآن وحذر منها في العديد من الآيات أول هذه العوامل الطموح الزائد والتطلع غير المحدود للإنسان في حب التملك حيث يقول تعالي:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[2].

ويقول رسول الله ﷺ: «ولو كان لابن ادم واديان من مال لابتغي إليهما ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[3]

فقد رأينا اندفاع المجتمعات البشرية على اختلافها، صناعية أو زراعية غنية كانت أو فقيرة، وراء تملك تلك الثروات مستخدمة في سبيل تحقيق هذا الهدف كل طاقاتها وإمكاناتها، مما ترتب عليه المشكلات التي أشرنا إليها فضلاً عن تلوث البيئة في البر والبحر والجو.

وثاني هذه العوامل هي الإسراف والنهم في إشباع الرغبات بصورة

---

(١) د. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدى، مرجع سابق، ص٥٧-٦٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤

(٣) رواه أنس وابن عباس.

عنيفة بلغت حد السفه، ونستطيع أن ندرك مغبة هذا الإسراف إذا ما لاحظنا بدقة ذلك الاندفاع المحموم الذي تقوم به شركات تصنيع الأغذية، حيث تعمد إلى ترويجها بكل سبيل وفي أي مكان رغبة في الوصول بالمبيعات إلى حدودها القصوى، والدول الصغيرة والكبيرة الغنية والفقيرة في هذا الخطب سواء ناهيك عن تكاليف الدعاية والإعلان حتى لأتفه السلع[1].

وقد أشار تقرير صادر عن الأمم المتحدة إلى أن مستوي الاستهلاك ومعدلاته الحالية في العالم إذا استمر على ما هو فيه فإن المصادر الطبيعية في الأرض ستنضب في مدة لا تتجاوز عشرين عاماً، كما يري واضعوا التقرير أن الأرض يمكن أن تلبي حاجات البشر بشرط البعد عن الإسراف، كما أن المحافظة على موارد الثروة تقع على كاهل الحكومات.

أما مشاكل الإسراف ومظاهر التبذير فلا يمكن حصرها في إنسان هذا العصر وهنا يبرز موقف الإسلام الثابت من هذه القضية والتي يلخصه قوله تعالي ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[2] وقوله صلي الله عليه وسلم: "ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه"[3]

وهنا أيضاً تتجلى حكمة المنهج الإسلامي الذي يقوم على الوسطية ويدعو إلى الاعتدال في الإنفاق والاستهلاك ، وهو ما عبرت عنه العديد من الآيات القرآنية، ومنها قوله تعالي:

---

(١) د. عبد الحكم عبد اللطيف الصعيدى، مرجع سابق، ٧٢-٧٤.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٧.

(٣) رواه الترمذى.

﴿يَابَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(٢) وقوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾(٣).

ويعني التطبيق العملي لهذه النصوص في ميدان البيئة– الحفاظ على التوازن البيئي، فلا شك أن السلوك المعتدل في تعامل الإنسان مع بيئته يعطي الفرصة لعناصر البيئة لكي تتجدد ذاتيا ولكي تمتص التلوث الناتج عن هذا التعامل أو التفاعل فيما بين الإنسان والبيئة، وهو ما يسمي بإعالة الحياة.

وسائل حفظ التوازن البيئي في المنظور الإسلامي:

ويتدرج الإسلام في دعوته إلى الحفاظ على التوازن البيئي في مستويات ثلاثة هي:

١– الأمر بالاعتدال والوسطية في سلوك الإنسان: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾(٤).

٢– النهي عن الإسراف والتبزير: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(٥).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٣١.
(٢) سورة الفرقان : الآية ٦٧.
(٣) سورة الإسراء: ٢٩.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٢٩
(٥) سورة الأعراف: الآية ٣١

٣- النهي عن الإفساد في الأرض: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

وعند تطبيق هذه المستويات الثلاثة في مجال تلوث البيئة، نجد أنها تقابل وتواجه درجات التلوث الثلاثة التي ذكرها علماء البيئة وذلك على النحو التالي:

أ-**التلوث المقبول:** وهو الناتج عن تفاعلات مكونات البيئة في حالة اعتدال تعامل الإنسان مع بيئته، فإذا تحلي الإنسان بالوسطية والاعتدال في سلوكه تجاه البيئة وهو ما يدعوا إليه الإسلام- فإن التأثير الناتج عن هذا التعامل الراشد لا يتجاوز حد التلوث المقبول.

ب-**التلوث الخطر:** وتصل البيئة إلى هذه الدرجة من التلوث عندما يصل الإنسان في تعامله مع مكونات بيئته إلى حد الإسراف والتبذير وهو الحد الذي ينهي عنه الإسلام كما أوضحت الآيات القرآنية المذكورة.

جـ- **التلوث الخطر:** وتحدث هذه الدرجة من التلوث عندما يصل الإنسان في تعامله مع بيئته إلى حد الإفساد. وهنا نجد القرآن الكريم ينهي عن الإفساد في الأرض على النحو الذي أشرنا إليها.

ومن ثم فإن الاعتدال الذي يدعو إليه الإسلام ينسجم مع التوازن البيئي ويحافظ عليه، ولكن عندما يخالف الإنسان التعاليم التي جاء بها الدين والنهي عن الإسراف والنهي عن الإفساد" يحدث الخلل والتلوث في البيئة.

لذلك فإن القرآن الكريم يحمل الإنسان مسئولية الإخلال بهذا التوازن

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٦

والذي ينتج عن تلوث البيئة. يذكر القرآن الكريم هذا المعني صراحة ويحمل الإنسان المسئولية المباشرة في إحداث هذا التلوث البيئي.

حيث يقول الله تعالي: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] فقد تنبأ القرآن الكريم في هذه الآية بظهور الفساد وهو هنا التلوث بكل ما تحمل الكلمة من معان وامتداد هذا الفساد أو التلوث يشمل البر والبحر وكلمة البحر في هذه الآية تشمل بحار الماء والهواء والفضاء فالعبرة بعموم اللفظ ينص القرآن الكريم في هذه الآية على أن مرجع الفساد هو ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فالقرآن يحمل الإنسان المسئولية الكاملة في قضية تلويث البيئة وإفسادها. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ تعني: بما وصلت إليه أيديهم من تكنولوجيا شملت كل وسائل الحياة واقترنت بتلوث بيئي خطير كما في استخدام الوقود من فحم وبترول واستخدام المبيدات الحشرية وإلقاء المخلفات السامة في الأنهار والبحار، وغير ذلك من صور التلوث التي تمثل أبشع ألوان الفساد التي تهلك الزرع والنسل، كما توقع القرآن الكريم إن الإنسان سوف يقوم بهذا الإفساد في قوله تعالي:

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[2].

وقد حرم الله الفساد في الأرض بعد إصلاحها في قوله تعالي: ﴿وَلا

---

(١) سورة الروم: الآية ٤١

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٥

تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

أما وقد ظهر الفساد وعمت كوارثه فلعل الناس يرجعون عن فسادهم وإفسادهم حتى يرفع الله عنهم العذاب والله سبحانه يعدهم بالجزاء في الدنيا والآخرة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[2].

ويشير الدكتور منصور حسب النبي إلى أن الفساد الذي تحدث عنه القرآن وإن كان يتجلى في تلوث البيئة، فإنه يظهر أيضاً في صور أخري مثل الفساد الاقتصادي الذي يتمثل في المعاملات المالية المحرمة والفساد الأخلاقي كالإباحية والشذوذ.. إلخ. ويوضح أن الآية القرآنية التي تحمل الإنسان مسئولية هذا الفساد تشير أيضاً إلى الآثار الضارة لهذا التلوث على الإنسان نفسه ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

فيقول: لقد أذاق الله تعالي البشرية نتائج التلوث خلال الأعوام الأخيرة وقد تمثل ذلك في ظهور أمراض جديدة في الإنسان والحيوان كالإيدز في الإنسان وجنون البقر في الحيوان، والأول ينشأ من الزنا وخلط الأنساب والثاني من خلط علف الحيوان بمكونات حيوانية[3].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٦

(٢) سورة القصص: الآية ٧٧

(٣) مقابلة مع الدكتور منصور حسب النبي سكرتير جمعية الإعجاز العلمي للقرآن والسنة النبوية، منشور في جريدة الخليج ١٩٩٦/١/١٥م.

فضلا عن ظهور التلوث بالإشعاع الذري المؤدي لهلاك الحياة كما في حوادث انفجار القنابل الذرية والمفاعلات النووية بجرعات قاتلة ويسبب سرطان الدم، واضطراب الدورة الدموية، وسقوط الشعر، وتلويث الماء والطعام بالإشعاع الذي يؤثر على صحة الإنسان وأجياله المقبلة، كما أن دفن النفايات النووية في البر تحدث أثاراً مدمرة والبحث والآثار المدمرة لذلك في المستقبل.

يضاف إلى ذلك التلوث بالمعادن الثقيلة وأخطرها الزئبق والرصاص والكاديوم والتي توجد في عوادم المصانع التي تصب في الأنهار والبحار والهواء وينتج عن مركباتهم تشوهات الأجنة في الأرحام والتخلف العقلي عند الأطفال والتسمم والموت وأمراض الفشل الكلوي والعقم والالتهاب الرئوي[1].

وهكذا تعددت مظاهر التلوث اليوم ومجالاته، فقد أمتد إلى الهواء والماء والتربة والغذاء فضلا عن التلوث الصوتي "الضوضاء" ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

ومن ثم فإن هذا التلوث هو عقاب للإنسان لأنه أخل بالتوازن البيئي الذي جعله الله صفة أساسية للأرض ومكونات البيئة عليها.

ويعرض الدكتور منصور حسب النبي نموذجاً يوضح مسئولية الإنسان في الإخلال بالتوازن البيئي في مجال جو الأرض الهواء فيقول: قد استقر جور الأرض منذ مليار سنة على ما هو عليه من هواء يتكون من مجموعة من الغازات بنسب ثابتة ومعظمها من النيتروجين والأكسجين ونسب ضئيلة

(١) المرجع السابق.
(٢) سورة الروم: الآية ٤١

من الغازات الأخرى مثل ثاني أكسيد الكربون.

وإذا حدث أي خلل في هذه التركيبة الطبيعية يحدث تلوث في الهواء. فعلى سبيل المثال يعتبر غاز ثاني أكسيد الكربون من أخطر ملوثات الهواء ينتج عن احتراق أي مادة عضوية في الهواء ولا يختلف في ذلك الخشب أو الفحم أو الورق أو زيت البترول ونظراً لأن هذا الغاز من المكونات الطبيعية للهواء لنه يتصاعد مع ثورات البراكين فإننا رغم هذا لا نشعر بوجوده ولا يخنقا طالما كانت نسبته في اطار التوازن الإلهي الطبيعي القائم بين الهواء والماء والمكونات الحية فهناك نسبة كبيرة من هذا الغاز تذوب في مياه البحار، كما أن النباتات تبني أعوادها وموادها العضوية من هذا الغاز في عملية التمثيل الضوئي الكلورفيللي. ولقد أخل التقدم العلمي بهذا التوازن إلى حد كبير في دورة الكربون في الطبيعة، لأن كمية غاز ثاني أكسيد الكربون الناتجة من الإسراف الشديد في إحراق الوقود والتي تقدر بمليارات الأطنان كل عام من هذا الغاز، جعلت من المستحيل بقاء هذا التوازن، وهناك من يعتقدون أنه إذا استمر إحراق الوقود وإزالة الغابات بالمعدل الحالي فإن نسبة هذا الغاز في الهواء الجوي ستصل إلى الضعف تقريباً في أوائل القرن القادم[1].

وهذا سيؤدي إلى اختلال التوازن بين الإشعاع الشمسى الساقط على الأرض أو المنعكس فيها لأن زيادة هذا الغاز يؤدي إلى امتصاص زيادة الإشعاع الحراري المنعكس من سطح الأرض وكأن هذا الغاز حابس الحرارة وهذا يؤدي للأسف إلى ارتفاع درجة حرارة الجو بمقدار درجتين أو ثلاثة من

(١) د. منصور حسب النبى، مرجع سابق.

منتصف القرن وترتفع إلى خمس درجات عام ٢١٠٠ وهو تطور خطير يحمل معه آثار مدمرة أهمها غرق الشواطئ والدلتا في كثير من دول العالم بما فيها مصر وبنجلاديش وأندونسيا والهند والصين نتيجة انصهار الجليد عند القطبين وبالتالي ارتفاع منسوب مياه البحر والمحيطات بمقدار ٦٥سم ويشير القرآن الكريم الآية الكريمة التالية إلى إنقاص الأرض من أطرافها[١]، أي من قمم الجبال والقطبين وشواطئ البحار والمحيطات كما في قوله تعالي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٢].

وقوله سبحانه ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٣].

ثم تأتي الضوضاء ثاني أهم الملوثات للبيئة وذلك منم نطلق أنها تفسد طبيعة الهواء وتحوله من هواء مفيد إلى هواء ضار، لما للضوضاء من أخطار مرضية تصيب الإنسان. ويحضنا الإسلام على تقليل الضوضاء حيث يدعونا إلى خفض الصوت. يقول تعالي: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾[٤].

وهكذا تنسجم تعاليم الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم مع التوازن البيئي في الأرض والكون، فسبحان خالق الكون ومنزل القرآن.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) سورة الرعد: الآية ٤١
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٤٤
(٤) سورة لقمان: الآية ١٩